21/11/2025

كيف يصنعُ الناس الطاغية الظالم

الحمدُ للهِ الَّذي خَلَقَ الخَلْقَ أحرارًا، وكَرَّمَهُم بِنورِ العُقولِ، وجَعَلَ العُبوديَّةَ الحَقَّةَ له وحدَهُ، فلا سُجودَ إلَّا لِوَجهِهِ، ولا خُضوعَ إلَّا لِشريعَتِهِ. أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبدُ اللهِ ورسولُه، أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليحرِّرَ الناسَ من رقِّ البشرِ إلى عدل ربِّ البشر.

أيُّها الأحبَّةُ، أوصيكم ونفسي بتقوى الله، فإنَّها العاصمُ من الذلِّ، والحارسُ من الانكسارِ، والمانعُ من السقوط تحت أقدامِ الظالمين.

أما بعدُ، فإنَّ خطبتنا اليومَ بعنوانِ: كيف يصنعُ الناس الطاغية الظالم.

أيُّها المؤمنون، الحريةُ ليست هديةً من مخلوقٍ، ولا منّةً من سلطانٍ، ولا وثيقةً يكتبها حاكمٌ حين يشاءُ. الحريةُ في الإسلامِ حقٌّ فطريٌّ ومنحةٌ إلهيةٌ، رسمها القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]؛ فكرامةُ الإنسانِ أصلٌ لا يُنتزعُ، وحريةُ قلبِه منحةٌ لا تُباعُ ولا تُشترى.

يا كرامَ، ما عرف الناسُ ذلًّا مثل ذلِّ الظلمِ والطغيانِ! وما توعَّد القرآنُ فئةً مثلما توعَّد الظالمين! قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42]، وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 21]. وفي الحديثِ الصحيحِ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة» [رواه مسلم: 2578].

أيُّها الأحبَّةُ، كيف يرضى الناس بالاستبداد وهم قادرون على التحرر؟ كيف يوافقون على سلب كرامتهم بأيديهم؟ وكيف يسمحون لطاغية أن يدوس رقابهم، وهو لا يملك قوةً إلا ما أعطوه هم؟ إنها عبوديةٌ طوعيةٌ غريبة، لا يُجبر فيها الناسُ بسلاسل الحديد، بل بسلاسل العادةِ والخوفِ والجهل.

أيُّها المؤمنون، الطاغية لا يتأله بقوته. فالطاغية ليس عملاقًا، بل مخلوق ضعيف لا يقوم إلا على قدم الطاعة التي يمده بها الناس. قال تعالى متحدثًا عن فرعون حين تفرعن: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: 54]؛ فالمصيبة لم تكن في فرعون وحده، بل في قومٍ قبلوا الاستخفاف ورضوا بالذل.

أيُّها الكرام، ثم يفضح القرآن حقيقة المستكبرين حين يقول: ﴿إِن كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]. فإن كان الشيطان أصل الشرور ضعيف الكيد، فما بالك بفرعون من لحم ودم؟ ولذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» [مسند أحمد: 1095]؛ لأن الطغيان لا يتمدد إلا بقدر ما ينحني الناس له.

يا أهل التقوى، إن الطغيان ليس قوة الطاغية، بل ضعف الشعوب. ولذلك قال الحكماء: ما ساد ظالم قط إلا في أمة نامت وتركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أيُّها الأحبَّة، أخطر أنواع الاستبداد ما بدأ عادة وانتهى طبيعة. فالأمم لا تُستعبد بالسيف أولًا، بل يُروّض وجدانها ترويضًا حتى يصبح الطغيان جزءًا من الهواء الذي يتنفسونه.

يبدأ الطغيان بأمر صغير بحجة الأمن أو الضرورة، ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يتحول إلى قدر يتوارثه الناس ولا يرون له بديلاً.

أيُّها المؤمنون، التربية الخاطئة تصنع أجيالًا تكره الحرية، أجيالًا تربّت على الخضوع والخوف وغض الطرف عن الظلم، فضاعت روح المسؤولية. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟» [مصنف ابن أبي شيبة: 30592].

والطاعة العمياء تتحول إلى تقليد اجتماعي؛ في البدء طاعة خوفًا ثم طاعة طمعًا ثم طاعة اعتيادًا، وتصبح جزءًا من الثقافة، حتى ينكر المجتمع على من يكسر القيد ولا ينكر على من يصنعه!

الولاء للمستبد يصبح ثقافة، فمن أخطر ما يبتلى به الناس أن يتحول الطغيان إلى «هوية»! يتفاخر بها بعضهم ويعدّ الدفاع عن الظالم بطولة وخدمته شرفًا.

وقال الحسن البصري رحمه الله: «اعلموا أن فرعون إنما تفرعن لطاعة الناس له» [حلية الأولياء لأبي نعيم: 2/147]؛ .

قال الشاعر:

لا تظلمَنَّ إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

أيُّها الأحبَّة، الاستبدادُ لا يظلُّ قائمًا يومًا واحدًا بدون أناس يدافعُون عنه، ولا يمضي ظله ساعةً دون قلوبٍ تُصفِّقُ له، ولا يزدادُ قوةً إلا حين يلين الناس له ويسكتون عن ظلمِه. الطغاةُ يعرفون مسالكَ السيطرةِ على القلوب والعقول، فيبدأون بالتدريج حتى تعتاد الأمة على الظلم والطغيان كأنهما أمرٌ طبيعي، فتحلّ عبودية الطاعةِ بدلًا من القهر الظاهر.

أيُّها الأحبّة، الطاغية يريد أن يُبعد الناس عن التفكير في مشاكلهم وأحوالهم الحقيقية. لذلك، يملأ حياتهم بأشياء تلهيهم مثل كرة القدم، والمقاهي، والملاهي، والسهرات. هذه الأمور تشغل الناس وتأخذ وقتهم، فتغيب لديهم روح التساؤل والرغبة في معرفة الحقيقة. يصبحون مشغولين بأشياء بسيطة وتافهة وينسون قضاياهم المهمة، وهذا يجعل من السهل على الطاغية أن يبقى مسيطرًا دون أن يقاومه أحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: 19].

ثانيًا: خلقُ هالةٍ من القوة والحكمة الزائفة حول الحاكم، حتى يتوهم الناسُ أنه لا يُخطئ ولا يُقاوم، وأنه قدرٌ محتوم، وكأنه من المنظرين. قال تعالى:

فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: 54]

ثالثًا: نظامُ المنح والامتيازات للأشخاص الذين يدافعون عن عرش الظالم، فتنشأ طبقةٌ تحميه من الداخل أولئك المنتفعين الذين يتمسكون بتلك المنافع ولو على حساب اقرب الناس اليهم.

رابعًا: إشعال الفُرقة والنعرات بين الناس، حتى لا تتحد الأمة على كلمة الحق. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

خامسًا: القمعُ الانتقائي لمن يعارض الطاغية لزرع الخوف في قلوب العامة، فيخضع الجميعُ دون مقاومة.

الظالم لا ينتصر إلا برضا الضعفاء الذين يرضون بظلمه، والطاغية لا يعلو إلا برضاء المستضعفين.

أصحابُ المصالح يبررون الظلم بلون السلطان، والمثقفونُ المأجورون يُلبسون باطلهم بثوب الحق، والعامة يظنون أن طاعة الطاغية الظالم من طاعة الله وهو ليس كذلك. قال علي رضي الله عنه: «لا يُعرف الحق بالرجال، إعرف الحق تعرف أهله».عندما يدخل الطغيان قلب الأمة، يفسد قيمها، ويهدم اقتصادها، ويقطع أواصرها، و يُذلّ كرامتها. باب التحرر الحقيقي يبدأ من تحرير القلب من الخوف والعقل من الجهل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: 44]، وقال النبي ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» [رواه أحمد].

التغيير يبدأ بوحدة الكلمة والوعي، والأنبياء بدأوا بتغيير النفوس قبل الأنظمة، قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: 40].

الحرية عبادة ومسؤولية، والأمة هي التي تملك قرار التحرر. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].فتحرير النفس هو بداية الحرية الحقيقية، وبهذا يكون النصرُ قريبًا بإذن الله.

أيُّها الكرامُ، لنا دروسا نتعلمها من أهل غزة الكرام، الذين لن يرضوا أن يطغى عليهم أحدٌ مهما اشتدَّ الظلم، فصمودهم وأساطير مقاومتهم تُعلّمنا معنى العزة والكرامة. لقد أثبتَ أهلُ غزة أنَّهم صامدون في وجه الطغيان والظلم مهما بلغت القسوة، وأنَّ العبودية الحقيقية ليست في السَّلاسل، بل في الخضوع والاستسلام.

غزة التي مرت بما فاق حدود الوصف من الحصار والقصف والقتل، لم تزل شامخةً كجبل صلب، ترفضُ أن تُهان، ترفضُ أن تذل، وتصرُّ على الثبات والكفاح. إنَّ الغطرسة الأمريكية التي تُمسك بزمام الأمور في مجلس الأمن، تستخدم الهيمنة السياسية لتحقيق أهداف لا تنالها بالقوة العسكرية.

فالهيمنة الأمريكية تستهدف إضعاف الفلسطينيين، عبر سياسات تُقسم بين غزة والضفة، وتحاول تفتيت مواقفهم، ومستغلة بذلك مجلس الخنوع لمنع أي قرار يحمي أهل غزة أو يوقف العدوان. هذا التلاعب أراد به الأمريكيون أن تُفقد غزة حريتها وكرامتها، وأن تُشطب من ذاكرتنا الإسلامية. لكن، أيها الأحبة، أهل غزة مثل الصخر، لا تنكسر تحت وطأة الاستبداد ولا تذل أمام الغطرسة، طالما في قلوبهم إيمان بالله تعالى ويقين بأن النصر قادمٌ لا محالة. هم يقفون ضد الطغيان بقلوب حرة وعزيمة لا تلين، يُعطون درسًا لمن يظن أن الهيمنة السياسية يمكن أن تُبقي شعبًا مقهورًا. نسأل الله أن ينصر أهل غزة، وأن يرفع عنهم البلاء، وأن يفتح لهم أبواب الحرية والكرامة. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

Título: La verdadera libertad

cómo surge y se sostiene la tiranía. Hermanos, la libertad no es un regalo de ningún gobernante ni un favor temporal. Es un derecho natural que Allah nos ha dado desde nuestra creación. El Corán dice: "Y ciertamente hemos honrado a los hijos de Adán" (Al-Isra, 17:70), lo que significa que la dignidad y la libertad son parte de nuestra esencia y nadie nos las puede quitar. El mayor sufrimiento que conoce la humanidad es la opresión y la tiranía. Allah advierte que no olvida lo que hacen los opresores y que ellos no tendrán éxito. El Profeta Muhammad, la paz sea con él, dijo: "Teman la opresión porque será oscuridad en el Día del Juicio" (Muslim).¿Cómo pueden las personas aceptar la opresión y renunciar a su dignidad? La esclavitud bajo la tiranía no es por cadenas visibles, sino por miedo, costumbre e ignorancia. El tirano no es fuerte por sí solo; su poder depende de la obediencia de la gente. Allah dijo de Faraón: "Despreció a su pueblo y ellos le obedecieron" (Az-Zukhruf, 43:54). El tirano es débil; su fuerza proviene del miedo y la sumisión de la gente. Ali ibn Abi Talib dijo: "No hay obediencia a un criado si es contra la obediencia a Allah".

La tiranía crece porque la gente permite que se convierta en rutina y cultura. Se educa a generaciones para temer y obedecer ciegamente, haciendo del tirano parte de su identidad. Pero un pueblo fuerte no deja que sobreviva un tirano. La tiranía solo crece cuando la gente está dormida o callada. La liberación comienza liberando el corazón y la mente, superando el miedo y la ignorancia. La verdadera fuerza está en la unidad y el conocimiento.

Allah dice: "Allah no cambia la condición de un pueblo hasta que ellos cambien lo que hay en sí mismos" (Ar-Ra’d, 13:11). El cambio comienza en nosotros; nuestra libertad interior es la base. Con la ayuda de Allah, la victoria estará cerca. Y en este camino de resistencia y dignidad, miramos con respeto al pueblo de Gaza, que enfrenta la opresión y la injusticia con una fortaleza firme .

A pesar de la crueldad y el bloqueo, su fe y su lucha nos enseñan que la verdadera libertad está en el corazón libre y la firmeza ante la injusticia. Gaza es un ejemplo vivo de que ningún tirano puede dominar a un pueblo que ama la libertad y confía en Allah. Que su resistencia sea para todos nosotros una inspiración para despertar, unirnos y reclamar nuestra dignidad y derechos. Así, como Gaza, buscamos la verdadera libertad y la caída de toda tiranía injusta, con la firmeza y la esperanza que solo Allah puede concedernos.